بلاد المغرب

أحاول منذ سنوات ، بقدر وسائل بحوثى اللغوية والتاريخية ، وهى متواضعة ، أن أحدد أوضاع لفظ « المغرب » جغرافية واستعمالا ، فلم أوفق ، على ما يرضينى من دقة . ولجأت إلى من هم أكثر منى توافراً على تلك الدراسات ، ومنهم بعض الأساتذة المستشرقين والمستعربين ، فلم أحظ منهم بما يطمئن . ورجوت أن أعثر خلال رحلتى الأخيرة إلى الشمال الافريقى بين مراجع مكتباتها العامة على ما يهدى فلم أجد . وأخيراً انتهيت إلى الوقوف عند حد « المشهور » ، وهو أن العرب الذين فتحوا أفريقيا هم الذين أطلقوا الغرب والمغرب على ما وراءها نحو المحيط الأطلنطى ، وأن الاصطلاح قد جرى على نعت منطقته البعيدة عن أفريقيا بالأقصى تمييزاً لها وتعييناً ، كما يجرى عرف العامة الآن على تسمية ما بين المغرب الأقصى وتونس بالوسطى ، وهى المنطقة الوسطى من مناطق الجزائر لسياسية الحالية ؛ لأن منطقتها الغربية بعاصمتها تلمسان إنما كانت دوماً من المغرب الأقصى ، ولأن منطقتها الشرقية حتى قسطنطينة كانت دوماً من أعمال أفريقيا . ولم يجر ، عند حد علمى ، استعمال « المغرب الأدنى » للدلالة على شئ بعد .

أما تحديد المغرب الجغرافى فانه يبدأ عند المصريين والمشارقة من حدود مصر الغربية ، أى إنه يشمل برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وهو عند المغاربة فى عموم من حدود تونس الشرقية ، فلا يشمل طرابلس ولا برقة . لكن التحديد الوارد فى بعض الموسوعات وفى بعض المؤلفات فى الأجناس إنما يعتبر صحراء لوبيا الكبرى هى الفاصلة بين المشرق والمغرب ، وهى الصحراء التى تقوم من ناحية البحر المتوسط بين برقة وطرابلس ، فتكون برقة ومصر وما شرقيهما إلى الخليج الفارسى بلاد المشرق ، وتكون طرابلس وتونس وما إلى غربيهما إلى المحيط الأطلنطى بلاد المغرب .

أما سكان المغرب فهم فى كثرة عظيمة من العنصر البربرى الذى استوطن

شمال أفريقيا منذ عرف التاريخ هذا الشمال . والمعتبر الآن عند المؤرخين أن البربر كنعانيون ، هاجروا مخترقين مصر ولوبيا منتسبين لماريغ بن كنعان ابن سام بن نوح ، فدعوا أنفسهم « الأمازيغ » ، وفسروا اللفظ على أنه يعنى « السادة الأحرار » لا يتحملون الخضوع لسلطان ولا يدعنون إلا للقوة على مضض ، ولا يخالطون . وقد ذكر ابن خلدون أن البربر ارتحلوا مما بين النهرين ، وأنهم أقاموا بعض الوقت فى مصر قبل أن يقصدوا إلى شمال أفريقيا « خوفاً أو طمعاً » كما فعلت من بعد « فى دولة الحماديين جماعة عظيمة من الأعراب من صحراء مصر » . وذهب هذا المذهب البحاثة الفرنسى دوما ؛ إذ قرر أن البربر من أبناء كنعان ، وأن بينهم وبين أهل الصعيد المصرى وجوه شبه عدة . وأيد غيره هذا التقرير بأنه يوجد حتى اليوم « فى الزناقة وهى قرية فى جنوب الجزائر عند منتصف الطريق بين بنى سويف وواحة الفقيق — وهما بالجزائر أيضاً — رسم بربرى عتيق منقوش على صخر يمثل الاله المصرى آمون بصورة كبش على رأسه شمس مماثلة لصورة آمون رع المنقوشة على حجر بمعبد الكرنك الفرعونى » .

والبربر قلة فى تونس حيث العنصر العربى هو الغالب ، وقد كانت الفتوحات الاسلامية تعتبرها هى المعسكر والمستقر ، لكنهم كثرة فى الجزائر وفى مراكش . وقد تعربوا لغة فى عموم ، وأسلموا ديناً فى شمول ، بل إن الاسلام ليبدو فيهم أمتن وأدنى إلى الغلو والاغراق ، وإن كانت بينهم قبائل تريد أن تتميز ببربريتها فتحافظ على تقاليدها الخاصة فى الاجتماع . وتستند هذه التقاليد إلى نظام الأسرة ، فتكون من مجموع الأسر التى يتحد أصلها وحدة اسمها الخروبة تخضع لسلطة كبيرها الذى يشرف على حفظ النظام وفض المشاكل العائلية والقضايا المدنية ، يرجع إليه أمر الزواج والطلاق ، ويقوم باكرام الزائرين والضيوف ، ويسير الأمور الفلاحية ويوزع أعباءها على أفراد خروبته .

ومن مجموع الخروبات تؤلف القبيلة مجتمعة حول ذكرى جد أعلى . وتعنى القبائل أكبر عناية بموضوع الحرمة أى احترام الجوار لأرض القبيلة أو القرية وشرفها ، وبتحالف القبيلة مع القبائل الأخرى للهجوم أو الدفاع أو تبادل المصالح .

وللبربر مجالس عرفية هى مجالس الجماعة يجتمع فى كل منها رؤساء الخروبات والمشايخ والأعيان ويلقبون بالضمان . ويختص المجلس بالنظر فى قضايا الجنايات والجنح وفى الشؤون السياسية والمالية ، ويقوم بعمارة المسجد

والمحافظة على المقابر وتوزيع مياه الرى وإضافة رجال السلطة . ويجب أن تصدر قرارات المجلس باجماع الآراء ، فان لم ينعقد الاجماع على رأى تأجل صدور القرار إلى وقت ملائم آخر ، أو جرى تحكيم أجانب عن المجلس فى موضوع الخلاف، ويكون قولهم هو الفصل . وللمجلس رئيسه ينفذ قرارات الجماعة ويسهر على الأمن واحترام الأخلاق .

ويقع شئ من الخلاف على تسمية الجزء الرابع من أجزاء المغرب بعد طرابلس وتونس والجزائر : فمن قائل إنه مراكش ، ومن قائل إنه المغرب الأقصى ومن قائل إنه المغرب . ويقع هذا الخلاف فى التعبير فى بلاد المغرب كلها وفى بلاد المشرق أيضاً . أما فى بلاد المشرق وفى تونس فيغلب استعمال مراكش للدلالة على ذلك الجزء الرابع ، ويقل استعمال المغرب الأقصى ، ويندر استعمال المغرب وحده . وأما فى الجزائر فيندر استعمال مراكش ، ويتناوب القوم استعمال المغرب أو المغرب الأقصى . أو فى الجزء الرابع ذاته يغلب استعمال المغرب ويتداول استعمال المغرب الأقصى ويندر استعمال مراكش . على أن بين أهل الذكر والشباب المثقف تياراً متجهاً إلى إيثار استعمال مراكش . ويستند هذا الاتجاه إلى أن التعبير بالمغرب فى شموله قد قل كما قل استعمال لفظ المشرق ، وأن التعبير بشمال أفريقيا هو الذى أخذ يغلب استعماله ، أو أن التعبير بالغرب العربى مقابلا « للشرق العربى » هو الذى يدعى له الآن فى بعض البيئات ، وأن النعت بالأقصى يستدعى قيام مقابلة التعبير بالأدنى والأوسط ، وشىء من هذا لم يجر به اللسان ولم تجر به الأقلام لا فى العربية ولا فى لغة من اللغات الأجنبية . وكذلك يستند الاتجاه الجديد إلى أن مراكش هو الاسم القديم الأصيل لتلك المنطقة ، وقد أطلق عليها أخذاً عن اسم عاصمتها على النحو الذى كان ذائعاً فيما مضى من عهود ، وأنه مركب من لفظين ، يرجع أحدهما إلى أصل عربى صميم ، ويرجع ثانيهما إلى أصل بربرى ؛ فكأنه يمثل الوحدة الحالية بين فريقى السكان المتآخين ، و « مر » بضم الميم فعل أمر من مرو و « كش » بضم الكاف أيضاً معناها بالبربرية سريعاً . وإلى هذا فان أصحاب الاتجاه يحسبون تحقيقه تحية منهم للاستعمال المشرق ، وهم يريدون أن تحكم الأواصر بين المغرب والمشرق . . .

ويختلف الوضع الدولى فى بلاد المغرب باختلاف هذه البلاد ذاتها . فاذا أخذنا بوجهة نظر المشارقة إلى بدء حدوده عند تخوم مصر الغربية ، فان ذلك الوضع فى برقة هو وضع إحدى المستعمرات الايتالية التى قضى مشروع معاهدة الصلح مع إيتاليا بنزول هذه الدولة عن حقوقها فيها ، وبتأجيل تقرير مصيرها سنة . وهو كذلك وضع الاقليم الذى تحتله قوات بريتانية وتتولاه إدارة بريتانية خالصة . أما الموقف من طرابلس فهو أيضاً ذات الموقف من برقة من حيث الاعتبار النظرى وتأجيل المصير النهائى إلى سنة والاحتلال بقوات بريتانية . لكنه يختلف من ناحية أن الادارة فيه معهود بها للموظفين الايتاليين الذين كانوا يتولونها قبل الحرب ، تحت الاشراف البريتانى . والوضع فى تونس وضع الارتباط بمعاهدتى حماية مع فرنسا منذ سنة ١٨٨٢ . والوضع فى الجزائر أنها تؤلف ثلاث مقاطعات فرنسية تتكون منها ولاية عامة . وأما الوضع فى مراكش أو المغرب الأقصى فرباعى المظاهر : مظهر الحماية الفرنسية فى المنطقة السلطانية الكبرى ، وعاصمتها الآن هى الرباط ، ومظهر الحماية الاسبانية فى المنطقة الخليفية الصغرى وعاصمتها الآن تطوان ، ومظهر الالحاق المباشر بأسبانيا فى سبتة ومليلة ، ثم مظهر الادارة الدولية فى الركن الأصغر المطل على المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط وهو ركن طنجة . ورأس الدولة فى هذه المناطق ، إلا سبتة ومليلة ، هو سلطان المغرب الأقصى الجالس على عرشه فى الرباط ينوب عنه خليفة من بيته فى تطوان ، ويمثله مندوب فى طنجة . وإلى جانب السلطان المقيم العام الفرنسى ، وإلى جانب الخليفة المندوب السامى الاسبانى ، وإلى جانب المندوب مجلس إدارة يرأسه الآن « مراقب » برتغالى يعاونه مديرون فرنسى وأسبانى وبريتانى وأميريكى وبلجيكى وهولندى يلحق بهم فى القريب روسى . . .

وكانت الفكرة التى سادت « تدويل » منطقة طنجة إنما هى فكرة الاعتبار الاستراتيجى البريتانى ، وقد أرادت بريتانيا العظمى ألا تقابل جبل طارق — قلعتها فى الشاطىء الأوربى من مدخل البحر المتوسط — قلاع لدول قوية على الشاطىء الافريقى . أما الفكرة التى سادت فتح الجزائر فحماية تونس فحمايتى المغرب الأقصى ثم فتح طرابلس الغرب ، فكانت هى فكرة الاستعمار والاستعمار المباشر ، إذ نظم انتقال الفرنسيين والأسبانيين والايتاليين ، وكثر

بين الفرنسيين أهل الألزاس عندما استولت عليها ألمانيا بعد حرب السبعين وأهل الكورس ، كما كثر بين الايتاليين أهل صقلية ، وانضم إلى الجوانب كلها نازحون عن مالطا ، وإذ نظم بينهم امتلاك الأراضى ، وهيئت لهم أسباب الاستثمار ووسائل الفلاحة ، ودخل فى أبواب هذا التنظيم تجريد الملاك الأصليين والدفع بهم إلى الداخل ، وفك الأحباس واعتبارها من أملاك الدولة وتوزيعها على النازحين . . .

وقد نشأت عن هذه الخاصية ، خاصية الامتلاك الواسع والاستقرار الطويل من جانب عدد وفير من الفرنسيين والاسبانيين والايتاليين ومن إليهم ، حالة يتميز بها المغرب فى عمومه عن مصر وبلاد المشرق فى عمومها كذلك . فالحياة فيه حياتان ، تكاد تكون الواحدة منهما منعزلة تمام الانعزال عن الأخرى .

ولقد شهدت فى تونس والجزائر ومراكش — وهى الأقطار التى زرتها أخيراً — أن سياسة العمران مستندة إلى مبدأ الثلاثية ، فكل مدينة مؤلفة من ثلاث وحدات : المدينة القديمة ، والمدينة الجديدة ، والمدينة الأوربية . والمدينة القديمة هى الأصيلة العتيقة التى تحرص إدارة الفنون الجميلة على إبقاء قديمها على ما هو عليه مهما يكن هذا الابقاء منافياً لأصول الصحة ومستلزمات الراحة . والمدينة الجديدة تتسع الشوارع فيها عن « حارات » المدينة القديمة ، وتقوم فيها الدور التى لا بأس بها . والمدينة الأوربية تشهق فيها العمائر وتنتظم الطرقات وتتوافر فيها وسائل الحديث فى كل شىء . وقد تتصل المدينة الجديدة بالمدينة القديمة أو لا تبعد عنها إلا قليلا ، ولكن المدينة الأوربية تبعد عنهما بكيلومترات . ويقطن الأهلون المدينة القديمة والمدينة الجديدة ، ويقطن الأوروبيون المدينة الأوربية ، فتكون العزلة بين الحياتين . وهكذا أحسست فى بنزرت وفى فاس وفى الدار البيضاء .

على أن هذا التجاور بين القديم والحديث لا تقف مظاهره فى المغرب عند حد العمائر فى المدن ، بل إنه ليتجاوز إلى جميع مظاهر الحياة فى الاقتصاد والاجتماع والثقافة . فآلات الانتاج الحديثة تتاخم الآلات التقليدية العتيقة ، والمذاهب الشيوعية ، تدعو إليها أحزاب منظمة وتنطق بلسانها صحف منتشرة ، تتاخم أضرحة المرابطين ودور أرباب الطرق . ومعاهد التعليم الفرنسى الخالص على ما هو قائم فى باريس نفسها من رياض أطفال ، و « ليسيات » للتعلمين

الابتدائى والثانوى الموصلين لاجازة البكالوريا ، وجامعة كاملة الكليات ملحقة بها معاهد الدراسات العليا ، تتاخم الكتاتيب التى يجلس فيها الأطفال على الحصير ويحفظون فيها القرآن على الطريقة البالية ، وإن كان بينهما نظام وسط فيما يسمونه المدارس الفرنسية الاسلامية وما تمتاز به المدرسة الصادقية بتونس ، وما يتجلى من اتجاه إلى الاصلاح والترقى يلوح فى « الخلدونية » التى أقيمت إلى جانب جامع الزيتونة بتونس لتتم الدراسة التقليدية بالجوانب العصرية والطرائق الحديثة .

ولقد نشأ من ذلك التناخم بين القديم والحديث — وإن كانت العزلة بينهما هى المتجلية — شىء من التفاوت فى طبائع الحركات الداعية إلى الاصلاح والتحرر فى بلاد المغرب ، وقد وجدتها هى الأخرى ثلاثية كما سجلتها بالنسبة لحركة العمران فى المدن . ففى تونس مثلا جماعة الزيتونيين ، وحزب الدستور القديم ، وحزب الدستور الجديد . وتستند الجماعة الزيتونية إلى الروح الاسلامية ، ويحرص الدستوريون القدماء على أن يظلوا فى حدود الاصلاح الاجتماعى المعتدل ، ويحمل الدستوريون الجدد طابع التقدم والعصرية . وفى الجزائر يتجلى الطابع الدينى عند جماعة العلماء ، ويستمسك حزب الشعب بالاتجاهات الايمانية الشعبية ، ويذهب زعماء اتحاد البيان إلى حدود الأخذ بالعصرية . وفى مراكش تبرز الدينية عند جماعة الخلافة ، ويقف حزب الاستقلال عند الاستمساك بتعاليم الاسلام . ويلوح لى حزب الشورى والاستقلال أميل إلى طريق التقدميين وإن كان يحرص على ألا يدع حزب الاستقلال يسبقه إلى الظهور بمظهر الاستمساك بالاسلام وتعاليمه .

ويرجع ذلك التفاوت إلى ما بين الزعماء من تفاوت بين أنواع التحصيل ؛ فيتولى الحركات التقدمية من حصلوا العلم فى المدارس الفرنسية أو بجامعة باريس ، ويتولى الحركات الاصلاحية الدينية من نشأوا نشأة دينية فى القرويين بفاس أو الزيتونة بتونس ، ويتولى التوجيه السياسى من كان وسطاً بين الاثنين . على أن حركاتهم كلها من الناحية الوطنية تهدف إلى هدف واحد هو هدف التحرر والاستقلال .

محمود عزمى